ملخّص برنامج الخاتمة - الحلقة(217)
هذا هو الحسين (ج٥٠)
الكذبة الكبيرة التي كذبها علينا مراجع النجف وكربلاء (ج١٩)
تطبيقات (ق٤): مناهج الاصلاح الضالة (ج٤)
الاثنين : ٥/صفر/١٤٤٣هـ - الموافق ١٣/٩/٢٠٢١م
عبد الحليم الغزّي

إنَّه الجزءُ التاسعَ عشر من عُنواننا المتقدِّم في الحلقات الماضية؛ **الكذْبَةُ الكُبْرى الَّتي كَذَبَها علينا مراجعُ النَّجف وكربلاء ومن تفرَّع عنهم** ؛ حيثُ ضَحِكوْا على ذُقوننا وأخبرونا أنَّ الأُمَّة صَلُحَ حَالُها وحَسُن أمرُها بعد مَقْتَلِ الحُسَينِ صلواتُ اللهِ وسَلامهُ عليه، والحقيقةُ ليست كذلك.

ماذا **قالت كتبُ الشوافعِ عن الشيخِ الطوسي؟!**

سأبدأ من هذا الكتاب: سِيَر أعلام النُّبلاء.

للإمامِ شمس الدِّين مُحمَّدَ بنِ أحمد بن عُثمان الذَّهبي المتوفَّى سنة ٧٤٨ للهجرة، الجزء الثامن عشر، طبعةُ مُؤسَّسةِ الرِّسالة، بتحقيق؛ شعيب الأرناؤوط، ومحمّد نعيم العرقسوسي.

-عرض صورة هذا الكتاب.

الصفحة (٤٣٤) رقم الترجمة (١٥٥): **أبو جعفر الطوسي** - كُنيةُ شيخِ الطائفة الطوسي، ماذا قال الذَّهبي في سِيَرِ أعلامِ النُّبلاء عن شيخِ الطائفة؟ قال عنهُ هكذا: **شَيخُ الشيعة وصاحبُ التصانيف أبو جعفر مُحمَّد بنُ الحسنِ بنِ عليٍّ الطوسي، قَدِمَ بغداد وتفقَّه أوَّلاً للشافعي** - تفقَّه أوَّلاً للشافعي مُنذُ بداياته مُنذُ طُفولته حينما كان في طوس - **ثُمَّ أخذَ الكلام وأصول القوم** - (أصول القوم) أصول عقائد الشيعة - **عن الشيخِ المفيد رأسِ الإماميّة ولزمهُ وبَرَع** - فالطوسي كان ذكياً وكان نبيهاً نابغاً هذا أمر يتَّفق عليه الجميع، من الشيعة وغير الشيعة - **وعَمِلَ التفسير** - يشير إلى تفسيره التبيان - **وأملى أحاديثَ ونوادرَ في مُجلَّدين** - إلى آخر كلامه.

إلى أن قال: **وكان يُعدُّ من الأذكياء لا الأزكياء** - فهو يذمّهُ هنا، الطوسي هل كان شافعياً مُنذ بداياته؟ أي أنَّهُ وُلد في عائلة شافعيّة، هُناك من يقولُ هذا الكلام ولكن لا دليل عليه، القرائنُ الَّتي بين أيدينا تُشيرُ إلى أنَّه وُلِد في عائلةٍ شَيعيةٍ، لكنَّهُ دَرَسَ عند الشوافعِ منذُ نُعومة أظفاره.

وفي كتابٍ آخر أيضاً للذَّهبي وهو كتاب مشهور ومعروف (تاريخُ الإسلام ووفياتُ المشاهيرِ والأعلام)، في المجلَّد العاشر بتحقيق الدكتور بشَّار عوّاد معروف، طبعةُ دار الغرب الإسلامي، في الجزء العاشر.

-عرض صورة الكتاب.

صفحة (١٢٢)، رقم الترجمة (٢٦٥): **مُحمّد بنُ الحسنِ بنِ عليّ أبو جعفر الطوسي شيخُ الشيعةِ وعالمُهم، تُوفِّي بالمشهد المبارك مشهد أمير المؤمنين رضي الله عنه في المحرّم** - وفاتهُ كانت في الثاني والعشرين من شهر مُحرم لسنة ٤٦٠ للهجرة - **ولأبي جعفرٍ الطوسي تفسيرٌ كبير عشرون مجلّداً وعدَّةُ تصانيف مشهورة، قَدِمَ بغداد وتعيَّن وتفقَّه للشافعي** - (وتَعيّن) صار معروفاً صار عَيناً من العُيون - **وتفقَّهَ للشافعي ولَزِمَ الشيخ المفيد مُدَّةً فتحوَّل رافضيّاً** - فهو يعتقدُ بأنَّهُ كان شافعياً مُنذ البداية وبعد ذلك صار رافضيّاً.

وفي كتابٍ آخر من كتبِ المخالفين: الوافي بالوفيات/ لصلاح الدِّين الصَّفَدي/ المتوفَّى سنة ٧٦٤ للهجرة/ الجزء الثاني/ طبعةُ دارِ إحياء التراث العربي/ بتحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى.

-عرض صورة الكتاب.

صفحة (٢٥٨)، رقم الترجمة (٨١١): **الطوسي الشيعي، مُحمّد بنُ الحسن بنِ حُسين بنِ عليّ أبو جعفر الطوسي، شيخُ الشيعة وعالمُهم، لهُ تفسيرٌ كبير عشرون مجلّداً وعدَّةُ تصانيف مشهورة، قَدِم بغداد وتَعيَّن وتَفقَّه للشافعي ولَزِمَ الشيخ المفيد فتحوّلَ رافضيّاً، توفي بالمشهد** - بالمشهد يعني في النَّجف - **سنة تسعٍ وخمسينَ وأربعمائة** - وفاتهُ الَّتي نعرفها كانت سنة ٤٦٠، أيضاً ماذا قال؟ "**وتفقَّه للشافعي وبعد ذلك تحوّل رافضيّاً**".

وفي طبقات الشافعيّة الكُبرى، لتاج الدِّين السّبكي، المتوفّى سنة (٧٧١):

طبعةُ دار إحياء الكتب العربيّة/ القاهرة - مصر / الجزء الرابع بتحقيق عبد الفتاح محمّد الحلو، ومحمود محمّد الطناحي، صفحة (١٢٦) رقم الترجمة (٣١٥): **مُحمَّد بن الحسن بن عليٍّ أبو جعفر الطوسي، فقيهُ الشيعةِ ومُصنِّفهم** - مُصنِّفهم مُؤلِّفهم - **كان ينتمي إلى مذهبِ الشافعي لهُ تفسير القُرآن** - إلى أن يقول - **قَدِم بغداد وتَفقَّه على مذهبِ الشافعي وقرأ الأصول والكلام على أبي عبد الله مُحمَّد بن مُحمَّد بن النعمان المعروف (بالمفيد) فقيهِ الإماميّة** - إلى آخرِ كلامه، فإنَّهُ وصفهُ بـــ(**فقيهِ الشيعة ومُصنِّفهم كان ينتمي إلى مذهب الشافعي**).

-عرض صورة كتاب (طبقات الشافعية الكبرى).

-عرض صورة كتاب (طبقات المفسّرين).

طبقا ت المفسِّرين/ للحافظ جلال الدِّين السيوطي شخصيَّةٌ من عُلماء السُنَّة مشهورةٌ جِدَّاً، صفحة (٩٣) من طبقات المفسَرين، رقم الترجمة (٩١): **مُحمَّد بنُ الحسن بن عليٍ أبو جعفر الطوسي شيخُ الشَيعة وعَالمُهم، لهُ تفسير كبير عشرون مجلَّداً قَدمَ بغداد وتَفنَّنَ** - صار من أهل الفن - **وتفنَّن وتفقَّه للشافعي ولَزِمَ الشيخ المفيد مُدَّةً فتحولَ رافضياً، ماتَ سنة ستين وأربعمائة.**

كُلُّ هذه الكتب، كُلُّ هذه المصادر تتحدَّثُ عن أنَّ الشيخ الطوسي كانَ شافعياً، وتفقَّه للشافعي فكانَ من أبناءِ المذهبِ الشافعي، نحنُ لا نريدُ أن نقبل كلامهم، هُم يقولون هذا، لكنَّ كلامهم ليس بعيداً عن الحقيقة كثيراً.

وهناك كتبٌ غيرها، هذه أمثلةٌ، هذه نماذجٌ من كتب المخالفين تُصرِّحُ بشكلٍ واضح مَن أنَّ الطوسي كان شافعي المذهب وصار رئيساً للإمامية صار رئيساً للشيعة الاثني عَشرية.

﴿**إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأ فَتَبَيَّنُوا**﴾، ليسَ صحيحاً أن نردَّ إخباراتهم، علينا أن نتبيَّن هذه المعلومات، تشبُّعُ الرجل - أتحدَّث عن الطوسي - بالفكرِ الشافعي وبالثقافة الشافعية إلى حدٍّ بعيد هو الَّذي دفع هؤلاء أن يقولوا عَن الطوسي من أنَّهُ كان شافعياً، وإلَّا لما لم يقولوا عن المفيد من أنَّه كان شافعيًّا؟! لأنَّهم قد يقولون هؤلاء من المخالفين ويُريدون أن يُشوِّهوا سُمعة شيخ الطائفة، إذاً لماذا لم يقولوا هذا الكلام عن الشيخ المفيد؟ لماذا لم يقولوا هذا الكلام عَن ولده عن ولد الشيخ الطوسي؟ لماذا امتدحوا ولد الشيخ الطوسي لكنَّهم لم يصفوه بأنَّهُ كان شافعياً وإنَّما قالوا كان على منهج أبيه!!

قد يقول قائلٌ: من أنَّ هؤلاء يُريدون تشويه سُمعة شيخ الطائفة؟!

هذا الكلامُ يُمكنُ أن يكون مقبولاً، ولكن إذا رجعنا إلى كُتبه وجدناها شافعيّةً، وإذا درسنا تاريخهُ وجدناهُ مُنذ نُعومةِ أظفارهِ يتعلَّمُ عند الشوافع، إلى بقيّةِ المعطياتِ والتفاصيل الكثيرة الَّتي تُصدِّق جانباً من قول هؤلاء.

في كتاب لسانُ الميزان:

لابن حجر العسقلاني، المتوفّى سنة (٨٥٢)، الجزءُ الثالث من طبعةِ مكتب المطبوعات الإسلاميّة.

-عرض صورة هذا الكتاب.

صفحة (١١٢)، رقم الترجمة (٢٣٨٦): **الحسنُ بنُ مُحمّد بنِ الحسن بن عليّ الطوسي أبو عليَ بنُ أبي جعفر** - إنَّهُ ولدُ الشيخ الطوسي الَّذي صارَ مرجعاً بالوراثة من بعده والَّذي استمرّت مرجعيّتهُ إلى ما يقرُب من ستين سنة، ماذا قال عنهُ ابنُ حجر؟ - **سَمعَ من والده** - فهو على منهج والده - **وفلان وفلان، ثُمَّ صارَ فقيه الشيعة وإمامهم بمشهد عليّ، سمع منهُ فلان وفلان** - إلى أن يقول - **وهو في نفسه صَدُوق** - هذا ابن الطوسي - **مات في حدود الخمسمائة** - نحنُ لا نعرف بالضبط سنة وفاته إلَّا أنَّ مرجعيّتهُ اقتربت من الستين عاماً، هو يقول ابنُ حجر عن الحسن بن شيخ الطائفة - **وكان مُتديِّناً كافَّاً عن السّب** - كافَّاً عن السَّب عن سبِّ أعداء أهل البيت، من دُعاة الوحدة، هذا من المرجئة، فلو كانَ شافعياً لقال عنهُ كانَ شافعياً..

في كتابِ الفهرست:

وهو كتابٌ معروفٌ للشيخ الطوسي، طبعةُ مؤسّسة نشر الفقاهة/ الطبعة الأولى/ ١٤١٧ هجري قمري/ صفحة ٢٧٧/ رقم الترجمة (٨٧٦): **أبو منصور الصرّام من جملة المتكلّمين** - الطوسي يقول يتحدَّثُ عن عالمٍ من علماء نيسابور - **من أهل نيسابور وكان رئيساً مُقدَّماً** - رئيساً مقدَّماً في الأجواء الدينيَّة، لهُ زعامةٌ دينيّة واجتماعيّةٌ - **ولهُ كتبٌ كثيرةٌ منها كتابٌ في الأصول** - المرادُ من الأصول:

- أصول الدِّين أوّلاً المعتقدات.

- وأصولُ الفقه ثانياً منهج الاستنباط.

-كتاب في الأصو ل سمّاه (بيان الدين) وكتابٌ في إبطال القياس، وكتابٌ تفسير القرآن كبيرٌ حَسَن، قرأت على أبي حازمٍ النيشابوري أكثر كتابٍ (بيانُ الدين)، وكان قد قرأه عليه - أبو حازمٍ النيشابوري مَن هُوَ هذا؟ هُوَ عُمر بن أحمد الأشعري الشافعي، توفّي سنة (٤١٧)، هذا من مشايخ الطوسي، هو الَّذي يتحدَّثُ عنه في كتابه الفهرست.

إذا نذهب إلى صفحة (٢٣٨)، في ترجمة الشيخ الصّدوق، رقم الترجمة (٧١٠)، في نهاية الترجمة يذكرُ بعضاً من مشايخه، الطوسي يذكر بعضاً من مشايخه، أحدُ هؤلاء (أبو زكريّا محمّد بن سليمان الحمراني)، وهذا معروفٌ من المخالفين.

العلّامة الحلّي في (الإجازة الكبرى)، إجازتهُ لسادات بني زُهرة، وهم السّادةُ الحُسينيّونَ الَّذين كانوا يقطنونَ في الشَّام في حلب، أجازهم العلَّامة الحلّي بإجازة عُرفت فيما بين العلَماء بالإجازة الكُبرى (إجازة العلَّامة الكبرى)، أقرأها عليكم من الجزء (١٠٤) من موسوعة (بحارِ الأنوار) لشيخنا المجلسي رحمةُ الله عليه/ طبعةُ دار إحياء التراث العربي/ بيروت - لبنان/ صفحة (١٣٦)، في أواخرِ الإجازة الكُبرى للعلَّامة الحلّي: **مُتَّصلاً عن الشيخ أبي جعفرِ الطوسي** - إنَّهُ شيخُ الطائفة - **جميعَ ما يرويه عن رجال العامّة** - هم المخالفون لأهلِ البيت - **مِنهُم** - هو لم يذكرهم جميعاً وإنَّما ذكَر منهم أمثلةً - **مِنْهُم:**

- أوّلاً: أبو الحسين ابنُ بشران المعدَّل.

- ثانياً: أبو الفتح ابنُ أبي الفوارس الحافظ.

- ثالثاً: مُحمّد بنُ محمّد بن مخلّد.

- رابعاً: هلال بنُ مُحمَّد الجبّار.

- خامساً: أبو عليٍ ابنُ شَاذان المتكلّم.

- **سادساً: أبو مُحمَّد ابنُ فحَّام بن السرمرائي.**

ومن رجال الكوفة - من النَّواصبِ أيضاً من مشايخ الطوسي.

- **سابعاً: أبو الحُسين بن خُشيش الكوفي** - من الكوفة.

- **ثامناً: المقرِي والقاضي أبو القاسم التنوخي.**

- **تاسعاً: القاضي أبو الطيِّب الطبري الجوزي.**

- **عاشراً: أبو عَمر ابنُ المهدي.**

- **الحادي عشر: أحمد بنُ مُحمّد بن الصلت الأهوازي.**

العلّامة الحلي ما ذَكَرَ كُلَّ أساتذة الشيخ الطوسي من النَّواصب، ذَكَر مجموعةً منهم..

سديدُ الدين محمود الحمصي الرَازي توفِّي سنة (٥٧٣)، تحدَّثَ عن الخللِ في آراء وفتاوى الشيخ الطوسي ومُخالفتها لمنهج العترة الطاهرة.

عزّ الدين ابن زهرة الحسيني الحلبي؛ المتوفّى سنة (٥٨٥)، إذا لم تخني ذاكرتي، صاحبَ كتاب الغُنْيَة (غُنْيَة النَّزوع إلى علمي الأصول والفروع)، كتابٌ معروفٌ في المكتبة الشيعيّة، انتقدَ الشيخ الطوسي وسفَّه بعضاً من آرائه.

كذلك محمّد بن منصور بن إدريس الحلّي؛ وهو الأشدّ في حديثه عن الطوسي، المتوفّى سنةَ (٥٩٨) للهجرة، في كتابه المعروف (السرائر)، كتابٌ مشهورٌ معروفٌ في الوسط الفقهي الشيعي، يشتملُ هذا الكتاب على بياناتٍ واضحةٍ يُشخِّصُ فيها ابنُ إدريس الحلّي الكثيرَ ممَّا جاءَ في كُتُبِ الطوسي ممَّا أخَذَهُ من الشافعي.

اَرتبط الطوسي بالمفيد، وكانَ ذلكَ في سنة (٤٠٨) للهجرة لَمّا وصل إلى بغداد قادماً من خراسان، والمفيدُ في أوائل شهرِ رمضان سنة (٤١٣) للهجرة توفِّي في بغداد وطُويت صفحةُ مرجعيّته، وانتقلت المرجعيّةُ إلى تلميذه السيد المرتضى، إنَّه "عليّ بن الحُسين الموسوي"، الَّذي يُعرفُ "بالسيد المرتضى"، الطوسيّ لولا السيدُ المرتضى لَمَا صارَ شيئاً يُذكر، إنَّني لا أتحدَّثُ عن القُدرة العلمية للشيخ الطوسي، إنَّما أتحدَّثُ عن الجهة الاجتماعيّة، عن الجهة السياسيّة، عن الجهة الحكوميّة، الطوسيّ صارَ شيخاً للطائفة ومرجعاً للشيعة بعد المرتضى ليسَ بسببِ علمه أبداً، يضحكون عليكم مثلما في زماننا، يضحكون علينا من أنَّ المرجع يكونُ مرجعاً للشيعة بسببِ علمه وورعه، وحقِّ الزَّهراء البتول هذا كذبٌ، كُلُّ المراجع الَّذين صاروا مراجعاً للشيعة هُناك أسبابٌ أخرى جعلت منهم مراجع للشيعة لَا علاقة لَها لا بالعلمِ ولَا بالدِّينِ ولا بالورعِ ولا بالزُّهد، ولا بأيِّ شيءٍ من هذا الكلام.

سأحدِّثكم شيئاً ما عن أجواء مرجعية السيد المرتضى:

إنَّها مرجعيّةٌ حُكوميّةٌ بامتياز، فالمرتضى كانَ من خُدَّامِ السَّلطة العبّاسيّة بامتياز، كذلكَ أخوهُ الشريفُ الرّضي، ولا يضحكون عليكم من أنَّ الشريفَ الرّضي عندهُ بعض الأبيات يظهرُ منها من أنَّهُ كان مُعترضاً على العبّاسيين، هذه حالاتٌ طارئة، العبّاسيّون سياسيّون من الطرازِ الأوّل، والعبّاسيون أكثرُ دهاءً من الأمويّين أضعافاً مُضاعفة، الدولةُ العبّاسيّةُ دولةٌ مخابراتيّةٌ منذُ أوّل لحظةٍ فيها، لأنَّهم في زمنِ العملِ السري كانوا يعملونَ بأساليبِ المخابرات السريَّة بدهاء غريبٍ وحيلة عجيبة.

سأذكر لكم بعض الصور من الزَّمنِ العبّاسي الَّتي ترتبطُ بحديثي عَن الشيخ الطَوسي:

العبّاسيون يبدو أنَّهم أرادوا أن يُكرروا التجربة المسيحية فيما يُسمّى بـ(المَجْمَع المسكوني الأوّل)، الَّذي يُعرَف بـ(مَجْمَع نيقيَا). قطعاً هذا الكلامُ ليس موجوداً في كُتبِ التاريخ وإنَّما استنتجهُ استنتاجاً، لأنَّ الخلفاء الأمويّين والخُلفاء العبّاسيين كانوا يقرؤون التاريخ وكانوا ينتفعونَ من التجاربِ السَّابقة، المسيحيّونَ في بدايات القرن الرابع الميلادي حَدَثَ فيما بينهم فيما بين رجال الدين حدث اختلاف كبير، وتشعَّبوا وتشقَّقوا خُصوصاً فيما يرتبطُ بألَوهيّة المسيح، اختلف المسيحيّون، تعدَّدت الفرق، وحدثت المشاكل والاصطدامات فيما بينهم، من هنا تدخَّل الامبراطور الروماني قسطنطين (قسطنطين الأوّل) ودعا إلى مؤتمرٍ عامٍ للمسيحيين، هذا الَّذي سُمِّي بـ(المَجْمَع المسكوني الأوَّل) "المسكوني" يعني العالمي، لكُلِّ المسيحيّين في العالم، نسبةً إلى الأرض المسكونة، واختاروا الأناجيل الأربعة، قبل هذا التاريخ كان عددُ الأناجيل عند المسيحيّين كثيراً وكثيراً جِدَّاً، فتمَّ اختيار هذه الأناجيل، وتمَّ اختيار قواعد العقيدة، وتمَّ الاتفاق على عقيدة الأقاليم الثلاثة، وكُلُّ هذا كُتب في مُسوَّدات اعتُمدت ديناً عند المسيحيّين إلى يومنا هذا، بقيّة الفِرق زالت، فإنَّ الدولة ما اعترفت بها اعترافاً رسمياً.

العبّاسيّون بسببِ كثرة المذاهب وكثرة الفرق عند الشيعة، عند العَلَويّين، حتَّى عند العبَّاسيين أنفسهم، وعند أبناء السَّقيفة الَّذين كانوا يُوصَفونَ بأبناء الجمهور، فأرادوا أن يُنظِّموا واقع دولتهم، من هنا الحكومةُ العبَّاسية وعلى رأسها الخليفةُ العبَّاسي اتَّخذوا قراراً: من أنَّ المذهبَ الَّذي يَدْفَعُ للدولة رُسوماً ماليّةً هُم قرّروها وقَدَّروها سيُعترَفُ به رسمياً من قبلِ الدولة العبّاسية وستكونُ الدولةُ العبّاسيّةُ مسؤولةً عن شؤونه وأوقافه وحمايته، هذه المذاهبُ الأربعة أصحابُها كُبراؤها هُم الَّذينَ بادروا ودَفعوا تلكَ الأموال، الضريبةُ كانت باهضةً جِدَّاً، بحسبِ الأخبارِ كانت بالملايين، فأرقامُها تُحسَبُ بألاف الألف، إنَّها بالملايين منَ الدنانيرِ منَ الدراهم..

الشيعةُ ما دفعوا، والعبّاسيون طالبوهم لو أنَّهم دفعوا لاعْتُرِفَ بمذهبهم ولتجنَّبوا الكثير من المشاكل، هذا كانَ في أيَّامِ مرجعيّةِ المرتضى، وهُناكَ من الأخبار الَّتي تقول من أنَّ الخليفة العبّاسي تساهل مع الشيعةِ ومع المرتضى بسببِ علاقته الشخصيةِ بالمرتضى،

مع العلم أنَّ السيّد المرتضى كان يملكُ أموالاً طائلةً، إلَّا أنَّهُ كان بخيلاً، هذه أكاذيب من أنَّهُ جاء بنصف المال وطالَبَ الشيعة بالنِّصف الآخر ومن أنَّ الشيعة ما دفعوا النِّصفَ الآخر، هذا غريبٌ أنَّ المرجع يُصدِرُ أمراً للشيعة وهم لا يدفعون! هذا غريبٌ جِدّاً لا يُصدَّق.
والدُ السيد المرتضى كان نقيباً للطالبيّين، توفّي والدُ السيد المرتضى فنقلوا نقابة الطالبيين للشريف الرّضي، الشريفُ الرّضي هو مُحمّد بنُ الحُسين، وهو أصغر من المرتضى، وتُوفّي دون الخمسين، متى صار الشّريف الرّضي نقيباً للطالبيين؟ كان ذلك سنة (٤٠٣)، وكما يُذْكَرُ في كُتبِ التاريخ: (هو أوَّلُ طالبيٍّ يُخلَعُ عليه بالسّواد)، يعني تُقدِّم الدولةُ العبّاسيةُ لهُ الثياب السوداء الرّسمية الَّتي كان يلبسها الخُلفاء والمسؤولون والوزراء، فهو أوّل طالبي وأَوَّلُ شيعي يلبسُ لباسَ العبّاسيين الأسود ويعتمُّ بعمامتهم، هذه العمامةُ الَّتي يلبسها الآن مراجعُ الشيعة، فخلعوا عليه لباسَ السَّواد فارتدى لباسَ العبّاسيين وارتدى عمامتهم لكنَّهُ لم يستمر طويلاً توفّي في سنة (٤٠٦) للهجرة، يعني قبل قُدوم الطوسي بسنتين، فلمّا توفّي في سنة (٤٠٦) الشيخُ المفيد لا زال موجوداً لأنَّه توفّي في سنة (٤١٣)، انتقلت نقابة الطالبيّين إلى أخيه الَّذي هو السيدُ المرتضى، وبقي نقيباً للطالبيّين، وتُضافُ إليه المسؤوليّات الأخرى حتَّى مماته سنة (٤٣٦) للهجرة، وصار مرجعاً للشيعة، قطعاً بتأييد الحكومة العباسيّة فهو وزيرٌ عندهم، بعد وفاة المفيد سنة (٤١٣) للهجرة.
فالمرتضى نشأ في عائلة حُكوميّة تشبّعت بشكلٍ وبآخر بالثقافة المعتزلية، ودَرَسَ عند المعتزلة، إذا أردنا أن ندرس حياة السيّد المرتضى فإن أساتذتهُ كانوا من المعتزلة.
- فصار المرتضى نقيباً للطالبيين.
- وعيّنوه أميراً للحج.
- وجعلوه قاضي قُضاة.
- وجعلوه مُتولياً لديوان المظالم.
فجمع أموالاً طائلةً..
المرتضى كانَ خادماً عندَ العبّاسيين لكنَّ مراجع الشيعة لا يُحدِّثونكم بهذا، كانَ خادماً عندَ العبّاسيين كانَ نقيباً للطالبيين، نقيبُ الطالبيين خادمٌ يخدم الخلافة العبّاسيّة بشكلٍ مباشر، ولذا يُغدقون عليه بالأموال، فبعدَ موت أخيه الشريف الرّضي لَبِسَ السَّوادَ ولَبِسَ العمامة الهارونيّة العبّاسيّة، عمائم العباسيين قبل هارون كانت تختلفُ بعضَ الشيء، هارونُ هوَ الَّذي صُمِّمت لهُ هذه العمامة إنَّها العمامةُ نفسها الَّتي يلبسها مراجعُ النَّجف وكربلاء من دُون ذؤابتين عمامةٌ إبليسيّةٌ ملعونة، هذه هي الَّتي وُصفت في الأحاديث عندنا بـ(عمائم إبليس).
مرجعٌ في هذه الأجواء وجد ضالَّتهُ في الشيخ الطوسي:
وجدَ شخصيّةً شيعيّةً ومن تلامذة المفيد رجلاً ذكيّاً نبيهاً نابغاً وفي الوقت نفسه هو شافعيّ ومعتزليّ، وجدهُ حاملاً لأسراره وأميناً على شؤونه وقرّبهُ من الحكومة العبّاسيّة، ما إنْ ماتَ المرتضى وكانَ الخليفةُ العبّاسيّ آنذاك هو القائمُ بأمر الله، أجلس الشيخ الطوسي على (كُرسي الكلام)، لأنَّهُ لا يستطيع أن يجعلهُ نقيباً للطالبيين، فالشيخُ الطوسي ما هو بطالبي، ما هو بهاشمي، وكانَ المقررُ أنَّ نقيب الطالبيّين يكونُ أميراً للحج، فلا يستطيعُ الخليفةُ العبّاسي بحسبِ القوانين الَّتي كانوا يعملون بها وبحسبِ الأعراف الموجودة أن يجعل الشيخ الطوسي نقيباً للطالبيّين وأميراً للحج إلى بقيّة التفاصيل الَّتي كان يتصدَّى لها السيدُ المرتضى، فأجلسهُ على كرسي الكلام.
كرسي الكلام ؛ هو أعلى منصبٍ علميٍّ رسميٍّ مُعترفٍ به من الدولة فمنحوه هذه السُّلطة، مَن الَّذين كانوا يحضرون في درسه؟ المعتزلةُ والشوافعُ وسائرِ النَّواصب والشيعةُ أيضاً، فهل سيتنازلُ الطوسيّ عن هذا الكرسي كي يُدرِّس الفكر الشيعي الخالص؟! وهوَ أساساً لا يستطيع ذلك لأنَّهُ كان مُعبَّأً بالفكرِ الشافعي المعتزلي الَّذي هو فكرُ الدولة العباسية، فكان يُدرِّسُ الفكر المعتزلي والفكر الشافعي والفكر الحنفي ويخلطُ معهُ شيئاً من فكرِ العترة الطاهرة..
توفّي المرتضى سنة ٤٣٦ للهجرة، صار الطوسيّ مرجعاً للشيعة والَّذي مَهَّدَ لهُ المرتضى، المرتضى الَّذي كان معتزلياً والمرتضى الَّذي كان خادماً للسُّلطة العبّاسيّة كان مُحتاجاً إلى شخصٍ على نفسِ ذَوقه، ووجد ضالَّتهُ في الشيخ الطوسي، ومن هنا قَرّبه للسُّلطة العباسيّة، ولذا أجلسوهُ على كُرسيّ الكلام وبقي على كرسيّ الكلام إلى سنة (٤٤٨) بعد أن حَدَثَ ما حَدَثَ في بغداد وفي أطراف بغداد في أجواء الحكومة العبّاسيّة، بدأت الحادثةُ سنة (٤٤٧)، انشقَّ أحدُ القيادات العبّاسيّة إنَّهُ أرسلان التركي البساسيري، انشقَّ عن الحكومة العبّاسيّة، كان قائداً من قُوّادهم، سببُ انشقاقه الخليفةُ الفاطمي في مصر وهو (المستنصر بالله الفاطمي) تواصل مع البساسيري، وكان البساسيري يميلُ إلى الفاطميّين، واتَّفقَ معهُ على أن يقوم بعمليةِ انقلابٍ على الحُكمِ العبّاسي، لكي يتسنَّى للدولة الفاطمية أن تفرض سُلطتها وحُكومتها على العراق وعلى المملكة العبّاسيّة، فعلاً البساسيري نَفَّذَ المخطَّط الَّذي تمَّ الاتفاقُ عليه فيما بينهُ وبين الفاطميّين في مصر، وحدثت فتنةٌ كبيرةٌ في العراق وتحديداً في بغداد، وحَدَثَ صراعٌ كبير فيما بين الشيعة وبين الآخرين، بين الشيعة والسُنَّة، فإنَّ تسميتهم بالسُنَّة كانت تنتشرُ شيئاً فشيئاً، وإلَّا في بدايات الأمر ما كانوا يُسمَّون بالسُنَّة، هذه التسميةُ في أصلها تسميةٌ أمويّة، الأمويّون في زمانِ العبّاسيين أخذوا يعملون بالتقيّة، سبَّ أمير المؤمنين بعد الصَّلاة كان معروفاً عندهم بـ(السُنَّة)، فأهلُ السُنَّة هم أهلُ السُنَّة الأمويّة الَّتي هي سبُّ عليٍّ صلواتُ الله وسلامهُ عليه، وبعد ذلك هذا الاسمُ انتشر..
البساسيري يُعلِنُ تأييدهُ للشيعة ضدَّ العبّاسيين، ما هوَ موقفُ الطوسي؟ موقفُ الطوسي كان رافضاً للبساسيري، لماذا؟ لأنَّهُ هُوَ من رجال الدولة العبّاسية، لذلك منحوهُ كرسي الكلام، وإلَّا فإنَّ الشيعة كانوا قليلينَ في بغداد، والطوسيّ هُوَ نفسهُ إذا رجعَ الأمرُ إليه بما

هُوَ هُوَ ما هو بشخصيّة مُهمَّة، الَّذي صنع منهُ شخصيّةٌ مُهمَّةً هو السيَد المرتضى، فلمَّا حدثت فتنةُ البساسيري واصطدم السُنَّةُ بالشيعة اصطداماً كبيراً هجموا على بيت الطوسي، لم تكن القضيّةُ من قبل الدولة العبّاسيّة، ولا حتَّى من قبل السَّلاجقة، لو كان الأمر من قبل الدولة العبّاسيّة أو كان الأمر من قبل السَّلاجقة لماذا لم يُتابعوه إلى النَّجف؟ فالنَّجفُ ما هي ببعيدة عن بغداد إذا كان الطوسيّ مطلوباً بشخصه، أبداً، كانوا مرتاحين لوجوده في النَّجف، لأنَّهُ أسَّس كياناً شيعيّاً سيكونُ مُؤيِّداً للحُكمِ العباسي، وهذا هو الَّذي يجري إلى يومنا هذا ، وإلَّا لو كانوا يطلبونَ الشيخ الطوسي بنفسه وبشخصه لماذا ذهب إلى النَّجف وفتح حوزةً هُناك؟ أسَّس حوزةً هناك بشكلٍ علنيٍ وانتقل طُلَّاب العلم والعُلماء إلى النَّجف وصارت حوزةُ الطوسي معروفةً في النَّجَف، فلماذا لم يُلاحقهُ الحُكمُ العباسي؟ ولماذا لم يُلاحقهُ السَّلاجقة؟

فالطوسي لم يكن مُناصراً للبساسيري حتَّى يُتابعهُ السَّلاجقة، ولم يكن مُخالفاً للحكم العبّاسي حتَّى يُطاردهُ العبّاسيّون، إنَّما هو اختلافٌ اجتماعيٌ كالعراك بين العشائر، فهجموا على بيت الطوسي، هم لا يعرفون علاقتهُ الوثيقة بالحُكمِ العبّاسي، ولذا هجموا على بيته وأحرقوا كُتبهُ وَأحرَقوا كُرسيَهُ - أتحدَّثُ عن كُرسيِ الكلام في المكان الَّذي كان يُلقي دُروسهُ وأبحاثهُ - فخرج فاراً من بغداد، لم يكنَ فاراً من السَّلاجقة، لو كان فاراً من السَّلاجقة لأخفى نفسهُ في النَّجف، فإنَّ السَّلاجقة سيصلون إليه، السَّلاجقةُ الَّذين كانوا يتابعون القارئات على سيِد الشُّهداء من النِّساء وكانوا يقتلون القارئات في الشوارع، بتعبيرنا المعاصر (الملّايات) كانوا يُتابعون الملّايات واحدة واحدة، وقتلوا مجموعةً منهنَّ في بغداد، ولذا في ذلك الوقت الخليفة العبّاسي أمَر بتغيير الأذان، هذا يعني أنَّ الأذان بالشَّهادة الثَّالثة كانَ موجوداً لأنَّ البويهيين كانوا موجودين إلى هذه الفترة قبل وصول السَّلاجقة.

في الجزء الثامن من الكامل في التاريخ/ للمؤرّخ المعروف بابن الأثير، المتوفّى سنة ٦٣٠ للهجرة/ وهذا هو المجلَّدُ الثامن من الكامل في التاريخ/ طبعةُ دار الكتب العلميّة/ بيروت - لبنان/ راجعهُ وصحّحهُ محمّد يوسف الدقَّاق/ صفحة (٣٣٥)، في حوادث سنة (٤٤٨): **وفيها أَمَرَ الخليفةُ بأن يُؤذَّن بالكرخ والمشهد** - الكرخ كانت منطقةً شيعيّة وإلى زماننا الكرخ منطقةٌ شيعيّة، لأنَّ بغداد كانت في الرصافة فقط، المنصور بنى بغداد في الرصافة، وتركَ الكرخ كي يكون موضعاً لمعاطن الإبل، معاطن الإبل مثلما نقول في زماننا الكراجات، ومنطقة الكرخ كانت منطقةً مثلما يُقال لها في أيّامنا في العراق (الحواسن)، والمشهد هو المشهدُ الكاظمي الَّذي كان في أطراف الكرخ في قطيعة أمِّ جعفر، في القطيعة الزُّبيدية، إنَّها مقابرُ قُريش في نهايات الكرخ - **وغيرها** - بماذا يُؤذَّن؟ - **الصَّلاةُ خيرٌ من النوم** - هذا عند أذان الفجر - **وأن يتركوا حيَ على خيرِ العمل** - هذا مُجاملةً للسَّلاجقة القادمين واستقواء بهم - **ففعلوا ما أمرهم به خوف السلطنة وقُوَّتها** - وأخفيت الشَّهادةُ الثَّالثة، هذا يعني أنَّ الشَّهادةَ الثَّالثةَ صحيحٌ ما أشاروا إليها، ولكن إذا جمعنا بين هذه المَعطيات وبين المَعطياتِ المتقدِّمة من أنَّ الشَّهادة الثَّالثة كان يُؤذَّن بها مُنذ بدَاياتِ دخول البويهيّين الَّذين دخلوا إلى بغداد سنةَ (٣٣٤).

في مثل هذه الظروف نشأت مرجعيّةُ الطوسي وأنتم لاحظتم ماذا كان يفعل الطوسي منذُ أيّام المفيد..